أما وظيفة الضمير الكائن فتتمثل فيما تهيأ له من نفوذ وسلطان على الإنسان، إذ ليس الضمير مجرد ملكه تدرك و تعقل وتتأمل، ولكنه مع كفالة حرية الإنسان فى التصرف يميل إلى الخير ويغرى بفعله، ويضيق بالشر وينفر من اقترافه، وفى طاعته راحة وطمأنينة، وفى عصيانه إثارة القلق والضيق، والإنسان فى الحالين حر فيما يأتى أو يتجنب من أفعال، ومن هنا كانت التبعة الخلقية، وبهذه السلطة التى تهيأت له يحدد لبقية عناصر الطبيعة البشرية مجال نشاطها حتى يؤدى كل منها. وظيفته فى قسط واعتدال، وبه يبطل الإنسان من حدة أنانيته، ويقصد المتصوف عن المغالاة فى إهمال نفسه وإغفال صحته والاستهانة بتهذيب شخصيته وتوسيع مداركه، وإن قليل من الناس من تطغى خيرتيه حتى تطمس صوت أنانيته، وبهذا الأتزان تستقيم الفضيلة وتتحقق السعادة[1].

من هذا يتضح أن وظيفتا الضمير عند «بتلر» و«وفيلون» تتساويان فى نتيجة ما تحدثه وظيفتا الضمير عند كليهما، إلا أن الهوة شاسعة، وذلك لأن «بتلر» يضع مساحة من حرية الإرادة للضمير عندما يقيمه على العقل، وهو فى نفس الوقت يرده إلى سلطة خارجيةٍعلى عكس فيلون الذى يرى أن الضمير كلية يقام على السلطة الخارجية وهى اللاهوت ـ الضمير المتأله.

ثانيًا: مصادر نظرية فيلون فى الضمير

مما لا شك فيه أن فيلون قدم مفهومًا للضمير مغايرًا لمن سبقه من فلاسفة اليونان، ولا يعنى أن تقفينا للجذور أننا نرد النظرية الفيلونية إلى الأصول اليونانية فهناك شذرات ـ حقًا ـ مدلولها ينم عن وجود ضمير، عند فلاسفة اليونان، وهى ترجع إلى أبعاد عقلية على اختلاف مفهوم الضمير

(1) د/ توفيق الطويل: فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها ص 378.

عند فيلون، حتى وإن كان هناك تشابها بينهما فى العقلانية لا يمكن أن نرده لفلاسفة اليونان، إنما هناك تأثير وتأثر يمكن أن نوضحه على الآتى:

بادئ ذى بدء نرى المدرسة الفيثاغورية تنطق بوظيفة الضمير عند فيلون فيقول فيثاغورس: «لا تدع النعاس يستولى على جفنيك قبل أن تفحص بعقلك جميع الأعمال التى قمت بها النهار كله. أسأل نفسك: ما الخير الذى صنعت؟ ما الذى قصرت عن أدائه؟ ماذا أهملت فعله مما أمرت به، فإذا انتهيت من الحكم على العمل الأول عن أعمالك فانظر فى سائر الأعمال واحد بعد واحدًا: وإذا وجدت أخيرًا أنك مذنب فعد على نفسك باللائمة والعذاب، وإذا وجدت أنك أحسنت صنعًا فاغتبطه وافرح»[1].

وهذا القدر من محاسبة النفس وتأنيب الضمير عن الفيثاغورية قد نجد صداه عند فيلسوفنا فى الوظيفة الثانية للضمير وهى ـ اللوم ـ وقد يرجع ذلك إلى «أن الفيثاغورية قد تنبت اتجاهًا دينيًا تطلب فيه الخلاص والتطهير والتصفية ـ اتجاه تلفيقى من فيثاغورس يرد عجلة الميلاد عند الأورفية»[2].

وإن كانت الرواقية قد حاولت أن تصل إلى حل للإشكالية التى مؤداها: هل يستطيع أن يصل الإنسان بملكاته إلى السعادة، فيبرأ من الشرور التى تساور حياته الباطنية، كالخطأ وزعزعة الإيمان والأسف والندم والحزن والجهل، والشرور الخارجية كالفقر والمرض والبؤس والإهانة والأذى والتشهير؟!

عالج الرواقية هذه المشكلة فانتهوا إلى حلها حلًا عقلانيًا فقالوا: إن سعادة الإنسان لا تخضع للظروف التى تحيط به، وإنما تتوقف على حالة

(1) د/ عادل العوا: المذاهب الأخلاقية، الجزء الأول، مطبعة الجامعة السورية، دمشق، 1958. ص 28.

(2) د/ أحمد فؤاد الأهوانى: فجر الفلسفة فى اليونانية ص 78.

فى النفس، للإرادة سلطان عليها، فليست الأشياء الخارجية هى التى تؤثر بذاتها فى وجودنا الباطنى، وإنما المؤثر الحقيقى هو استعدادنا النفسى الذى يجعلنا نحيا فى هذه الظروف ونحكم عليها أحكامًا تقويمية، أعنى، أن نصفها بالحسن أو القبح، بالخير أو بالشر.

ويقول ابكتيتوس أيضًا: «إن الذى يصيب الناس ويؤثر فى حياتهم ليست الأشياء نفسها، بل آراؤهم عن الأشياء، فلو كان سقراط يرى الموت شرًا فأقدم عليه غير مبالٍ»[1].

الرواقية فى هذه المعالجة رأت حلًا عقليًا قائمًا على الحياة وفقًا للطبيعة. وتحرير الإنسان من مشكلة القدر أو الأشياء الخارجية، وبنت الأخلاق على الحياة الباطنية التى انعكست برمتها على لاهوت الضمير عند فيلون متخذة شكلًا أو ثوبًا جديدًا مخالفًا لما رآه الرواقيون وهو ثوب الدين أو الموروث اليهودى المقدس من ناحية، والتأويل الرمزى القائم على صيغ يونانية من ناحية أخرى، أعنى، أن ذلك الشكل الذى قدمه فيلون عن الضمير مبنىُ على الحياة الباطنية ـ حقًا ـ ولكنه جديد فى محتواه، لأن الحياة الباطنية ممثلة فى الضمير مبنية على الدين مخالفة منه لما حاولت أن تجعله الرواقية غير منسجم مع الرغبة فهم يقولون «لا تجعل الأمور تسير منسجمة مع رغبتك، وإنما حاول أن ترضى بما يقع، فإنك إذا فعلت تنعم بالسلام الداخلى، أقنع ازهد[2] ويرى فيلون أن نذهب إلى حياة العزلة إلى الصحراء كى نخلص الضمير من العالم الخارجى.

وهذا التناظر يمثل دربين من الفلسفة الأخلاقية فالأول العيش فى العالم

(1) د/ عثمان أمين: الفلسفة الرواقية. ص 162.

(2) أندرية كريسون: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، ترجمة، د/ عبد الحليم محمود ود / أبو بكر ذكرى طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، 2004، ص 148.

الخارجى مع عدم الاكتراث به، والثانى يقرر الهروب منه، وكليهما ينشد حالة واحدة وهى راحة الضمير، وكليهما أيضًا مختلف فالأول يعتمد على العقل، أعنى، معايشة العقل للواقع، والأخر، يعنى أن الخلاص يكون مع مخلوق أخر هو الوحى أو الشريعة. ورغمًا عن هذا الاختلاف فإن الدرب الثانى ليس مفارقًا للأول فإنه يأخذ منه صيغة وتعبيراته لتكون نشئًا أخلاقيا متكاملًا بين العقل والوحى.

ولم تكن مسألة التأثير الرواقى على فيلون قصرًا على هذا فحسب وإنما ما رأه سينكا فى امتحان الضمير يمثل شكلًا أخر من التأثير نجد صداه فى مفهوم التوبة عند فيلون فهو يقول: «إن بذل الجهد من شيم الكرام، يعنى خاصتهم وصفوتهم، وأن الشرف الصحيح هو الذى يناله الإنسان بنبل قلبه وعظمة نفسه»، وقولة إنه ينبغى علينا أن نعد الكلمات صراعًا مستمرًا، وأن نخضع أنفسنا الاختيار باطنى دقيق، فننظر كل مساء كيف أنفقنا ساعات نهارنا، سنذكر بأنه لا شىء ناج من رقابة الضمير الذى يقف لنا بالمر صاد، ويحكم على ما نفعل، وأن الآلهة شهود على أفكارنا وخواطرنا، رقباء على كلامنا وأخلاقنا[1].

وهذا الاختبار الذى يقدمه لنا سينكا لامتحان الضمير، والذى بشكل ما يتوازى مع محاسبة النفس عند فيتاغورث، يعنى ضمنًا، أن الضمير يقوم بوظيفة أساسية وهى اللوم، كما أنه لابد وأن يجعل حالة الصراع قائمة داخليا، لأن استمرارية الصراع الداخلى عند الإنسان تعنى يقظة الضمير وهذه الحالة من الصراع الداخلى هى تلك الحالة التى كان ينشدها فيلون، واستحال عليه أن يجدها فى حياة المدينة وقرر الفرار نحو العزلة وتغيير المقام الموجودين فى شروط التوبة عنده.

(1) نفس المرجع: ص 189.

ناهيك عن هذا كله أن التأثير الحقيقى للرواقية يبدو عند فيلون فى إحلال خصائص الحكيم الرواقى على النفس الإنسانية، فإذا كان الحكيم الرواقى ينصح أو يلوم أو يحفز الإنسان، فإن النفس ممثلة فى الضمير تقوم بنفس الدور الذى يقوم به الحكيم[1]. أو بعبارة أخرى، إذا كان الحكيم الرواقى يمثل سلطة خارجية تقوم العالم الداخلى عن طريق اللوم والنصح، فإن الضمير عند فيلون يقوم بنفس المهمة من اللوم والنصح، ولكن بسلطة خارجية تختلف تمامًا عن سلطة الحكيم الرواقى، أعنى، الوجود الإلهى فى الضمير أو اللوجوس اللوام[2].

وإذا كانت نتائج اللوم عند الحكيم الرواقى تؤدى إلى «عدم وجود الاضطراب» أو حالة الطمأنينة، والاتزان الأخلاقى لنفس قد رضيت عن ذاتها، ورضيت عن الأشياء، أو هدوء العقب، أو ما يسميه «ديكارت» الرضا، ويسميه «اسبنيوزا» الغبطة، وإن لم يكن هو السعادة الكاملة فهو على الأقل يحوى أحد عناصرها الجوهرية[3]. فإن نتائج الضمير عند فيلون «هى الانتقال من الصفة إلى الاستعداد الثابت، الذى يعد بمثابة انتقال من العمل الصالح الذى يتم سريعًا إلى الحالة الدائمة غير القابلة للفناء التى يجب أن تلد شبيها بها»: أو كما يقول بلغة أفلاطونية انتقال من المحسوس إلى المعقول.

وإن شئنا خلاصًا من الحديث عن التأثير الرواقى عند فيلون، يمكن أن نقول أن فيلون وظف بعض المفاهيم الرواقية الأخلاقية عن السعادة أو العيش وفقًا للحياة والتى تؤدى بدورها: على عدم الأكتراث من الحياة، إلى العيش وفقًا للضمير ـ الضمير الإلهى الذى يعمل وفقًا لإرادة الله، فهو من الله وبالله يعمل يدور يعمل من أجل الوصول إلى الكمال.

---

(1) أميل برهيية، المرجع السابق. ص 38.

(2) Philo: Qucstiones and answeres on Gen, B4, 62, p 295.

(3) أندرية كريسون: المرجع السابق ص 140.

أما التأثير الأبيقورى يظهر على فيلون من تمييز «أبيقور» بين اللذات، حيث ميز بين نوعين من اللذات، الأول من شأنه الحركة، والأخر من شأنه السكون والطمأنينة، أما ما من شأنه الحركة هو تعودنا على تسميته لذة: لذة الأكل، لذة الشرب، لذة النكاح، أما ما من شأنه السكون والطمأنينة فهو نوع أخر: (انعدام الألم) وانعدام الألم تمتع، فالحياة لذاتها فى الواقع لطيف، وأن من يعيش بمعزل عن الآلام يعيش فى متعة عظيمة.

ويذهب أبعد من هذا، إلى أن عدم الألم ليس مجرد تمتع فحسب، وإنما هو تمتع بلغ القمة. ويؤكد ذلك بنص صريح «أليس من الحق أن الهدف لكل أعمالنا إنما هو الهرب من الألم والقلق، حتى إذا ما وصلنا إلى ذلك، تخلص الإنسان من كل بواعث الاضطراب تخلصًا واعتقد ـ لذلك ـ أنه مغمور فى محيط من النعيم»[1].

تأثر فيلون فى ذلك يرجع إلى الهروب من الإدركات الحسية، والهروب من حياة المدينة نحو الشر، إلا أن انعدام الألم عند الأبيقورية قصد منه الحصول على اللذة مفاداة للألم، إلا أن انعدام الألم عند فيلون هجر اللذة تمامًا والعيش فى الحالة الرهبانية.

ويمكن أن نقول من خلال هذا التأثير أن مصادر نظرية الضمير قد تنوعت عند فيلون ممثلة فى فيتاغورث وأبيقور وسينكا وابكتتيوس، ولا يعنى ذلك، أنها نظرية غير جديرة بالاحترام، حتى لو احتوت على هذه المصادر من قريب أو بعيد، لأنها أخرجت الخلاص من الإطار النظرى إلى الحياة العملية، ولأنها أيضًا أسست ضميرًا مبنيًا على اللاهوت.

(1) نفس المرجع ص 131.